الإهداء

إلى الأخ الحبيب صاحب الخطّ المنسوب

الأستاذ يوسف ذنون تقديراً ووفاءً.

مقـــدمة

ما زالت الدراسات الادبية لا تقوم إلا على أساس من التوثيق والتعليق ، شأنها في ذلك شأن الدراسات التاريخية ، لتوافق المنهج ووحدة الطريق، ومن هنا نشأت الحاجة الى العناية بالوثائق وتصنيفها والمواشجة بينها ، كل ذلك في سبيل المعرفة الضالة ، التي نستشرفها في كل أعمالنا .

والشعر الجاهلي وثيقة مهمة في دراسة الحياة العربية في ذالكم العصر الواغل في القدم ، فهو سجل لأخلاقهم ،وعاداتهم ،ودياناتهم ،وعقليتهم، «به حفظت الأنساب، وعرفت المآثر ،ومنه تعلمت العربية »(١) وقد بعدت عنا منابع هذا الشعر ، نظراً لموقفنا اليوم من سفر التاريخ المتلاحق ، وقد أخذ هذا الشعر من الرواة الاولين شطراً كبيراً من العناية ، فهم الذين عنوا بجمعه وتصنيفه وتدوينه ، فعرفت يومذاك دواوين جمهرة من الشعراء والقبائل على النحو الذي يذكره المؤرخون (٢) ، وضاع من هذه الدواوين ماضاع . وتفرق منها في خزائن العالمين ما تفرق ، ولم ينشر منها إلا القليل القليل ، وكان حظ شاعرنا (ذي الاصبع العدواني) كابياً ، فلم نقف له على ديوان مجموع ، فنشطنا الى جمعه وتحريره على المنهج الحديث الذي تقره الاوساط العلمية ، وتشترط فيه الامانة والتحقيق والتخريج والموازنة بين الروايات ، لنخلص في النهاية الى نص محرر مقبول ، يصلح أن يقوم مقام الوثيقة التاريخية في بناء الدراسات المنهجية ، ومن أولى خطوات منهجنا التعرف على صاحب هذه الاضمامة من الشعر ، التي تتسلل باستحياء الى مكانها في المكتبة العربية لقلتها، وضمور قدرها في نظر من لا يرى في الشعر العربي القديم إلا قولا مضى فى ركاب قائليه ، والحاجة المعاصرة لاتدعو الى مثل هذا العمل المتخلف، وقد رضينا لانفسنا أن نقف في صف من يرضى لنفسه هذه التهمة مأخوذين بحب القديم ، لاجريرة لنا في ذلك إلا تعلقنا بتراثنا تعلق ولد بوالد .

---

(١) المزهر في علوم اللغة ٢/ ٤٧٠، وانظر: الدكتور السيد عبدالعزيز سالم: تاريخ العرب في العصر الجاهلي/ ٣٨

(٢) الفهرست/ ١٥٧ ومابعدها . نشرة فلوجل . وانظر : مقدمة الشيخ عبد القادر بن عمر البغدادي (ت/ ١٠٩٣) لكتابه : خزانة الادب ولب لباب لسان العرب ١/ ٩.

الشـــاعر

١- اسمه ونسبه : إتفقت المظان المترجمة لذي الاصبع على أن اسمه : (حرثان) بضم الحاء وتسكين الراء، وتفرد أبو حاتم السجستاني بضبطه مشدد الراء ، وقال المرتضى : إنه (محرث بن حرثان)(١)، وقد عادت هذه الاصول فاختلفت في اسم ابيه وسياق نسبه، فهو عند الاصمعي(٢): حرثان بن السموأل، وعند السجستاني (٣): حرثان بن محرث ، وعند ابن قتيبة (٤): هو ابن عمرو ، واغرب الآمدي فى هذا ، فجعله: حارثة بن محرث (٥)،مخالفاً مشهور الرواية في اسمه ، ووافق المشهور في اسم أبيه ، وقد قفا المؤرخون أثر هـؤلاء النقلة النسابين الرواة ، فمنهم من وافـق الاصمعي ، ومنهم من غايره ، فاختار ما أثبته الاصمعي في سياق نسبه بعد جده الثالث ، وهذا هو ما اتفق عليه أغلب أهل الانساب ، فهو عندهم (٦): حرثان بن محرث بن الحارث (٧) بن ربيعة ابن وهب بن ثعلبة بن ظرب (بفتح الظاء وكسر الراء) مـن بني عدوان ، وذهب أبو بكر بن دريد الى أبعد من هذا ، فخصه ببني (ناج) مـن سائر عدوان (٨) .

---

(١) أمالي المرتضى١/٢٤٤

(٢) خزانة الادب٤/٣٤٨

(٣) المعمرون/٩٠

(٤) الشعر والشعراء ٢/٧٠٨

(٥) المؤتلف والمختلف/١٧٠

(٦) وانظر : ترجمته في /الاغاني ٣/٧٩، واماليالمرتضى ١/١٧٦،ولالي البكري ، وسمط الميمني عليها ١/٢٨٩ ، وشرح الشواهد الكبرى على هامش خزانة الادب ٤/٣٧٤، والقاب الشعراء ، ومن يعرف منهم بامه (المجموعة الخامسة من نوادر المخطوطات /٢٠٧) وشعراء النصرانية ق٥/٦٢٨

(٧) وفي الاغاني : ابن الحارث بن محرث (٣/٨٩)

(٨) الاشتقاق /٢٦٨

وعدوان : بفتح العين وتسكين الدال (١) ، وتقال وهماً بفتحتين خلافا للمشهور بدليل قول ذي الاصبع :

رصع أفواقهـا وأترصها أنبل عدوان كلهـا صنعـا(٢) .

وقوله أيضا :

عذير الحي مـن عدوا ن كانوا حية الأرض

والاول من (المنسرح) ، ولو كان عدوان بفتحتين ، لاستعصى معهما ضبط الوزن ، والثاني من (الهزج) ، ولا تستقيم معه الفتحتان ، كما أن بيته الآخر :

فان تلك عدوان بن عمرو تفرقت فقد غنيت دهراً ملوكاً هنا لكا

من (الطويل) لايستقيم وزنه بفتحتي عدوان على الوهم .

وإذا استقر لدينا ضبطه بسكون الدال ، علمنا بعدئذ أنه اسم لقبيلة كبيرة من قبائل العرب، طار صيت جماعة منها في العصر الجاهلي والعصور الاسلامية المتعاقبة ، على أن صاحبنا كان أشهر رجالها على الاطلاق ، ولايوشـك أن يدانيه في شهرته إلا المصري إبن ابي الاصبع العدواني المتوفى سنة (٦٥٤هـ) صاحب « تحرير التحبير ، وبديع القران » (٣)، وقد سميت هذه القبيلة باسم الحارث بن عمرو بن قيس عيلان بن مضر ، وإنما سمي الحارث هذا عدوانا لانه عـدا على اخيه «فهم» فقتله (٤)، ثم دب الشقاق بينهم ، فبغى بعضهم على بعض ، وفي (اللسان/عدا) : إنهـا نسبة إلى عدوان بن عمرو بن قيس عيلان ، والمسمى واحد في الغالب ، عرف مرة باسمه ، ومرة بصفته ، فوجب التنبيه دفعا للشبهة والاختلاط .

وقد نقل أبو الفرج الاصفهاني عن أبي عمرو بن العلاء في روايته (٥): أن

---

(١) اللسان / عدا

(٢) تراجع الابيات مشكولة في متن الديوان .

(٣) الاعلام ٤/١٥٦

(٤) وقيل : إنه فقأ عينه ، انظر : أمالي المرتضى١/١٨٦ ، ونهاية الأرب في معرفة انساب العرب/٣٢٦

(٥) الاغاني ٣/١٠٣

السبب في تفرق عدوان ، وتقاتلهم حتى الفناء : أن بني ناج بن يشكر بن عدوان أغاروا على بني الحارث بن سعد بن ظرب بن عمرو بن عباد بن يشكر إبن عدوان، ونذرت (١) بهم بنو عوف ، فاقتتلوا ، فقتل بنو ناج ثمانية نفر، فيهم عمير بن مالك سيد بني عوف، وقتلت بنو عوف رجلا منهم ، يقال له : سنان بن جابر ، وتفرقوا على حرب ، وكان الذي أصابوه من بني وائلة بن عمرو بن عباد ، وكان سيداً، فاصطلح سائر الناس على الديات . أن يتعاطوها ، ورضوا بذلك ، وأبى مرير بن جابر أن يقبل بسنان بن جابر دية ، واعتزل هو وبنو أبيه ومن أطاعهم ومن والاهم، وتبعه على ذلك كرب بن خالد أحد بني عبس بن ناج ، فمشى إليهما ذو الاصبع ، وسألهما قبول الدية ، وقال :

« قد قتل منا ثمانية نفر فقبلنا الدية ، وقتل منكم رجل فاقبلوا ديته ».

فأبيا ذلك ،وأقاما على الحرب ، فكان ذلك بدأ حرب بعضهم بعضاً ، حتى تفانوا ، وتقطعوا ، فقال ذو الاصبع في ذلك : (٢)

ويابؤس للايام والدهر هالكا ... وصرف الليالي يختلفن كذلكا
أبعد بني ناج وسعيك فيهم ... فلا تتبعن عينيك ماكان هالكا
إذا قلت معروفاً لأصلح بينهم ... يقول مرير : لا أحاول ذلكا
فأضحوا كظهر العود جب سنامه ... يحوم عليه الطير أحدب باركا(٣)
فان تك عدوان بن عمرو تفرقت ... فقد غنيت دهراً ملوكاً هنالكا

وقال ابن دريد : «وفنيت عدوان في الدهر الاول لبغيهم »(٤)، وبهذا نفسر ضمور ذكر القبيلة وخمولها في التاريخ العربي ، إذ لانكاد نعرف عنها إلا أخباراً متفرقة، تتصل ببعض أعلامها كصاحبنا، وكعامر بن الظرب المعمر الحكيم

(١) بفتح النون وكسر الذال : يقال نذر بالشيء ،اي :علمه، فحذره (اللسان / نذر)
(٢) انظر : تخريج القطعة المرقمة (١٥)
(٣) العود : (بفتح العين) الجمل المسن ،وفيه بقية (اللسان/عود)
(٤) الاشتقاق /٢٦٨

ويحيى بن يعمر ، الذي يقال : إنه أول من اهتم بنقط المصاحف (١)، وقد صور ذو الاصبع هذا البغي والفناء في أغلب شعره تصويراً بارعاً، ينم عن تأثر ممض عميق ، يصدر عن نفس مهيضة الجناح ، عز عليها أن رأت أنصارها وذويها يحتربون ، فيفنون ، ويقتل بعضهم بعضاً ، بعد أن كانوا في سالف عهدهم «حية الارض» لكثرة عددهم ، نقل أبو الفرج عن الاصمعي (٢) : أن عدوان نزلت على ماء ،فأحصوا فيهم سبعين ألف غلام أغرل (٣)، سوى من كان مختوناً ، ثم وقع بأسهم بينهم، فتفانوا، فقال ذو الاصبع :

عذير الحي من عدوا ... ن كانوا حية الأرض
بغى بعضهم بعضاً ... فلم يبقوا على بعض
فقد صاروا أحاديث ... برفع القول والخفض
ومنهم كانت السادا ... ت والموفون بالقرض
ومنهم من يجيز النا ... س بالسنة والفرض
ومنهم حكم يقضي ... فلا ينقض ما يقضي

وزعم أبو عمرو بن العلاء: أن عدوان ارتحلت عن منزل، فعد فيهم أربعون ألف غلام أقلف (٤)، وهذا الخبر وقرينه لايخلوان من مبالغة وإسراف ، فهما من جنس رواية هشام بن الكلبي عن رجل أنه قال :

«وقع على أياد البق ، فأصاب كل رجل منهم بقتان» (٥)

ومن قصيدة يخاطب بها الشاعر ابنته (أمامة) ، وقد رأته يتوكأ على العصا ،

---

(١) كتاب المصاحف /١٤١ . . النقط في هذا الموضع ليس المقصود به نقط الاعجام الملازم لبعض الحروف، وانما هو بمثابة الشكل او الحركة التي شاع استعمالها فيما بعد ،لان نقط الاعجام كان معروفاً قبل ذلك بزمن على الاغلب (يوسف ذنون : محاضرات في الخط العربي/١٢-١٤)

(٢) الاغاني٣/٧٩

(٣) الذي لم يختن .

(٤) الذي لم يختن ايضاً ، وانظر : الاغاني ٣/٩١ ، وثمة أخبار تتصل بعدوان ، اوردها ياقوت في مادة (الطائف) من (معجم البلدان ٤/١٠) .

(٥) الاغاني ٣/٩١

وهو شيخ كبير، فجزعت، فقال يذكرها عدوان، وكيف تفرقت، وفنيت(١):

جزعت أمامة أن مشيت على العصا ... وتذكرت إذ نحن م المتيـان
فلقبل مـا رام الا لـه بكـيده ... إرماً وهذا الحي من عـدوان
بعـد الحكومة والفضـيلة والنهى ... طاف الزمـان عليهم بأوان
وتفرقـوا وتقطعت أشـلاؤهم ... وتبـددوا فرقـاً بكل مكان
جدب البلاد وأعقمت أرحـامهم ... والدهر غيرهم مع الحـدثان
حتى أبادهـم عـلى أخـراهم ... صرعي بكل نقـيرة ومكان

وسترى نحو هذا القول في ديوانه الذي نقدم له بهذه الصفحات .

٢ - كنيته ولقبه وحياته :

تكنى ذو الاصبع بأبي عدوان (٢) تمسكا بشهرة قبيلته ، وقد عرف في أصولنا كلها بذي الاصبع ، وهو لقب اتصل به ، حين نهشت الافعى ابهام رجله، فقطعتها ، وقيل : شلت (٣) ، وقيل : كانت له أصبع زائدة (٤) ، واخترنا في ضبط (الاصبع) في طرة هذا الديوان ، ما اختاره ابو العباس ثعلب في الفصيح مكسور الهمزة مفتوح الباء ، والمعروف فيهـا عشر لغات ، مـن ضمنها (الاصبوع) (٥) وما اخترناه أفصح هذه اللغات (٦).

عاش ذو الاصبع مائة وسبعين سنة . وذكر أبو حاتم السجستاني : أنه عاش ثلاثمائة سنة ، (٧) وبين أيدينا من شعره قطعة، تصور حياة المعمر تصويراً

(١) انظر : تخريج القطعة الثانية والعشرين .
(٢) امالي المرتضى ١/٢٤٤
(٣) نفسـه ١/٢٤٤
(٤) التاج /صبع ٥/٤٠٨، وانظر : الدكتور سامي مكي العاني : معجم ألقاب الشعراء/٩١-٩٢
(٥) اللسان/صبع
(٦) الفصيح بشرح ابن ناقيا البغدادي /٢٢٤
(٧) المعمرون /٩٠

جميلا ، بعد أن فقد قدرته على السمع والبصر فنراه يقول :

أصبحت شيخاً أرى الشخصين أربعة والشخص شخصين لما مسني الكبر
لا أسمع الصوت حتى أستدير له ليلا وإن هو ناغاني به القمر

وهذا القول يتفق وطبيعة الشيخ الواهن ، الذي أصبح الضعف قرينا له ، وانما قال (ليلا) ، لان الليل يجعل السمع أمراً ميسوراً ، لهدوء الجلبة فيه ، فاذا كنت لا تسمع في هدأة الليل وسجوه ، كنت أبعد من السمع في غمرة الناس ولغطهم ساعة النهار ، ونحن لا نستطيع أن نؤكد قول ابي حاتم في مسألة الاعوام الثلاثمائة ، ونكتفي بالقول : إن أمر التحديد المذكور تقديري على الاغلب، وقد يكون راويه مشتبهاً بين صاحبنا وقرينه عامر بن الظرب العدواني، فقد ذكروا أن عامراً هذا عمر ثلاثمائة سنة وقال في ذلك (١) :

تقول ابنتي لما رأتني كأنني سليم أفاع ليلة غير مودع (٢)
وما الموت أفناني ولكن تتابعت علي سنون من مصيف ومربع
ثلاث مئين قد مررن كواملا وها أنا هذا أرتجي مر أربع
فأصبحت مثل النسر طارت فراخه إذا رام تطياراً يقال له : قع
أخبر أخبار القرون التي مضت ولا بد يوماً أن يطار بمصرعي

ونحن لا نكاد نعرف عن شاعرنا شيئاً مفصلا ، يجعل حياته لدينا على طرف الثمام ، بعد أن أمسك نقلة الاخبار عن الحديث عنه بشكل يسعف الباحث الذي لا يجد إلا ما قالوه عنه حين وصفوه بأنه كان « شاعراً وحكيماً وفارساً في الجاهلية ، له غارات كثيرة في العرب ، ووقائع مشهورة » (٣) وكانت

(١) مجمع الامثال ١/٣٩
(٢) السليم : الملدوغ ، وهو من ألفاظ الاضداد ، انظر : «اضداد ابي الطيب اللغوي١/٣٥١» .
(٣) الاغاني٣/٨٩

وفاته نحو عام (٢٥ق هـ ـ ٥٩٥ م)[١] وقيل : نحو عام (٢٢) [٢]وأن له أربع بنات ، وابنته أمامة ، كانت من شواعر العرب ، وقد رثت قومها بقصيدة[٣]، ويذكرون ما كان من خطبة بناته إليه ، وإعراضه عن تزويجهن ، بعد ما كان يرى من حيائهن عند مباشرتهن بأمر الزواج ، وكانت أمهن تقول :

... لو زوجتهن ، فلا يفعل .

فخرج ليلة إلى متحدث [٤] لهن ، يسترق السمع ، فاذا باحداهن تقول :

... تعالين نتمن ، ولنصدق ، فقالت الكبرى :

ألا ليت زوجي من أناس ذوي غنى ... حديث الشباب طيب الريح والعطر

طبيب بأدواء النساء كأنه ... خليفة جان لا ينام على وتر

فقلن لها : أنت تحبين رجلا ليس من قومك .

فقالت الثانية :

ألا هل أراها ليلة وضجيعها ... أشم كنصل السيف غير مبلد

لصوق بأكباد النساء وأصله ... إذا ما انتمي من سر أهلي ومحتدي

فقلن لها : أنت تحبين رجلا من قومك .

فقالت الثالثة :

ألا ليته يملا الجفان لضيفه ... له جفنة يشقى بها النيب والجزر (٥)

له حكمات الدهر من غير كبرة ... تشين ولا الفاني ولا الضرع الغمر (٦)

فقلن لها : أنت تحبين رجلا شريفاً .

---

(١) عمر فروخ : تاريخ الادب العربي ١/١٦٥

(٢) الاعلام ٢/١٨٤

(٣) الاغاني ٣/١٠٨

(٤) بفتح الدال : مجلس حديثهن .

(٥) النيب : جمع ناب ، وهي الناقة المسنة ، والجزر : بضم الجيم وسكون الراء ضرورة، وأصله بضمتين، جمع جزور، وهو ماقدم للنحر من الابل .

(٦) الضرع : الضعيف ، والغمر : من لم يجرب الامور .

وقلن للصغرى : تمني .

فقالت : ما أريد شيئاً .

قلن : والله لا تبرحين حتى نعلم ما في نفسك .

قالت : زوج من عود ، خير من قعود .

فلما سمع ذلك أبوهن ، زوجهن أربعهن ، فمكثن برهة ، ثم اجتمعن إليه ، فقال للكبرى : يا بنية ، ما مالكم ؟

قالت : الابل .

قال : فكيف تجدونها ؟

قالت : خير مال ، نأكل لحومها مزعا (١) ، ونشرب ألبانها جرعا ، وتحملنا وضيفنا معا .(٢)

فقال : فكيف تجدين زوجك ؟

قالت : خير زوج ، يكرم الخليلة ، ويعطي الوسيلة .

قال : مال عميم ، وزوج كريم .

ثم قال للثانية : يا بنية ، ما مالكم ؟

قالت : البقر .

قال : فكيف تجدونها ؟

قالت : خير مال ، تألف الفناء ، وتودك السقاء (٣) ، وتملأ الاناء ، ونساء مع نســـاء .

قال : فكيف تجدين زوجك ؟

قالت : خير زوج ، يكرم أهله ، وينسى فضله .

---

(١) أي : قطعاً .

(٢) وفي رواية : وضعيفنا .

(٣) تجعل فيه الودك ، وهو الدسم .

قال : حظيت ورضيت .

ثم قال للثالثة : ما مالكم ؟

قالت : المعزى .

قال : فكيف تجدونها ؟

قالت : لابأس بها، نولدها فطماً (١)،ونسلخها أدما (٢).

قال : فكيف تجدين زوجك ؟

قالت : لا بأس به ، ليس بالبخيل الحكر (٣)، ولابالسمح البذر .

قال : جدوى مغـــنية (٤).

ثم قال للرابعة : يا بنية ، ما مالكم ؟

قالت : الضأن

قال : وكيف تجدونها ؟

قالت : شر مال،جوف(٥)لا يشبعن، وهيم لا ينقعن(٦)، وصم لايسمعن(٧)، وأمر مغويتهن يتبعن (٨).

قال : فكيف تجدين زوجك ؟

---

(١) بضمتين ، جمع فطيم ، وهو مايفصل عن الرضاع.

(٢) اسم لجمع الاديم ، وهو الجلد ، أو الاحمر منه ، او مدبوغه.

(٣) المستبد بالرأي .

(٤) اي :فيها غناء ونفع، وفي كامل المبرد / طبعة أوربا (ص٣١٨) :جذوى مغنية بالذال، وقال في تفسيره: «الجذو جمع جذوة ،وأصل ذلك في الخشب ماكان منه فيه نار» وانظر:«الجمان في تشـــبيهات القران /٨٩ متناً وهامشاً» والخبر فيه بلفظ مغاير واسقاط واضح .

(٥) عظام الاجواف .

(٦) عطاش لايرتوين .

(٧) قولها :«صم لايسمعن» وارد على وجه المثل ،لان الضأن يكون بليداً ،وفي امثالهم «أبلدمايرعى الضأن».

(٨) قولها «امر مغويتهن يتبعن» جاء في تفسيره في (الكامل/٣١٧): قال علي بن عبدالله : قلت لابي عائشة ماقولها : وأمر مغويتهن يتبعن؟، فقال : اما تراهن يمررن ،فنسقط الواحدة منهن في ماء او وحل وما اشبه ذلك فيتبعنها اليه .

قالت : شر زوج يكرم نفسه ، ويهين عرسه .

قال : أشبه امرأ بعض بزه(١).

والذي في النفس من هذا الخبر مايدفعنا الى القول : إنه ليس ببعيد أن يكون موضوعاً ، مصنوعاً ، محمولا على ذي الاصبع ، من قبل أصحاب الاخبار ، وتسقطه أصحاب الامثال،فأوردوه فى رواياتهم ،فان التكلف فيه ماثل للنظر ، والله اعلم .

وبعد : فقد كان ذو الاصبع ، أحد من تحتكم اليه العرب ، كاحتكامها إلى عامر بن الظرب العدواني أيضاً ، ومن أثار حكمته الوصية التي أوصى بهاابنه، يعلمه فيها مخايل السيادة ، ويفصل له الامور التي لابد له أن يتصف بها ليكون سيداً في قومه (٢) ، فهو شخصية قوية من شخصيات العصر الجاهلي ، تتمثل فيه المزايا العربية الأصيلة ، فهو سمح ، جواد ، عطوف ، شجاع ، سيد، مجذامة فى قومه (٣) ، أراد أن يرضي الناس ، فيستصبي أفئدتهم،وأفئدة قبيلته خاصة ، ليتسنى له أن يجمع شتيتها ، بعد أن تفرقت ، ولكن العداء والحقد المستحكم ، أثار حفائظ حاسديه ، فلم ترضهم أن تبقى وشيجة القرابة ، وصلة الرحم قائمة في القبيلة ، ومن شانئيه وحاسديه : من أسماه في شعره «عمرواً»، وهو ابن عمه (٤) ، الذي صب جام غضبه وحقده على الشاعر ، فحلم عنه ، وأمسك أن يغضب إزاءه أول الامر ، وخاطبه بقوله :

لولا أواصر قربى كنت تحفظها ورهبة الله في مولى يعاديني

إذاً بربتك بريئاً لا انجبار له إني رأيتك لا تنفك تبريني

(١) انظر : الاغاني ٣/٩٤ ، الكامل/٣١٧ ، الجمان/٨٨ ، وقوله : أشبه أمرأ بعض بزه ، مثل يضرب في مماثلة الشيء صاحبه (المستقصى ١/١٨٧ ، ١٨٨) .

(٢) انظر : الوصية الموطئة للقصيدة (١٦) من الديوان لارتباطهما برواية الاغاني .

(٣) المجذامة : الفاطع للامور كما في (شرح الفصيح/٣١٨) .

(٤) وذكر في قصيدته (١٤) رجلا من عدوان اسمه (مرير) في خبر الخلف والنزاع بين ابناء العمومة .

ونحن نرى في هذا القول تعظيماً لعرف القبيلة ، واحتراماً لوشائج النسب ، إذ اكتفى الشاعر بالتهديد فقط ، لانه يعلم حق العلم ، أن السهم الصائب إن فوقه إلى ابن عمه ،عاد هذا السهم الى نحره في آخر الامر ،وقديماً قال الاخر :

قومي هم قتلوا أميم أخي فاذا رميت يصيبني سهمي

وشاعرنا يكن لقبيلته حباً ،ووداً ، وصفاء نابعاً من خلقه النبيل ، الذي لم يبح له أن ينطوي على غيظ وحقد، يكدر صفو علاقته بقومه، اولئك الذين سعى جاهداً إلى حقن دمائهم من الضياع ، ثم عاد فعالل الخلاف بينهم ، وازدراء بعضهم بعضاً ، بسوء تصرف ناشيء عن انتقاص ابن عمه لمنزلته ، فهو يقول والحزن يملك عليه أقطار قلبه :

ولي ابن عم على ما كان من خلق مختلفان فأقليه ويقليني

أزرى بنا أننا شالت نعامتنا فخالني دونه بل خلته دوني

ومن لمحات سيادته ، وسعة عقله ، ما نجده في البيت الذي حدد فيه موقف ابن عمه منه. لكنه في الوقت نفسه لم يمعن في الاتهام، ليكون في نجوة من الاشتباه واللوم ، فلذا رأيناه لم يجرد نفسه من التهمة ، ليوقع في النفس ، أنه مقصر في حق قرينه أيضا،ومتى اطمأن إلى أنهما متساويان متضارعان بخطأ الموقف ،كان ذلك مفتاحاً لحسن اتفاق في النهاية ،حين لا يرى كل منهما صاحبه غاليا في الاساءة إليه، وهو يبادر الى مخاطبة ابن عمه،ويكشف له عن دخيلة نفسه إمعاناً في تقريب وجهة النظر ، لا إسرافاً في التهديد ، كما يبدو من ظاهر قوله الذي نهى فيه غريمه ، بالكف عن امتهانه على مرأى ومسمع من الناس ، وحذره من مغبة هذا الامر :

يا عمرو إلا تدع شتمي ومنقصتي أضربك حتى تقول الهامة اسقوني (١)

(١) زعموا ان القتيل الذي يطل دمه ، ولايؤخذ بثأره، يخرج من قبره طائريشبه الغراب،فيصيح: اسقوني اسقوني «يعني من دم القاتل»، حتى يؤخذ بالثأر،فينقطع الطائر . خرافة ليس إلا ،وانظر تخرج البيت في القطعة رقم (٢١) .

والذي يبدو : أن عمرواً المذكور في هذه القصيدة ، ليس عدوانياً من بني ناج عصب الشاعر ، وإنما هو سليل فرع آخر من عدوان ، بدليل قول ذي الاصبع :

وانتم معشر زيد على مائة فأجمعوا شملكم طرا فكيدوني

ثم يلتفت الى نفسه ، فيفخر فخر العربي الكريم ، الناسل من صلب كريم ، طيب المحتد والنجار ، على أنه بعد ذلك شجاع لايلين إلا لمن يبتغي لينه ، وإذاك يكون الحق لصاحب الحق ، فنجده يقول :

لايخرج القسر مني غير مغضبة ولا ألين لمن لا يبتغي لبني

وهو لم يفرد نونيته هذه لحجاج ابن عمه هذا ، فيجعلها يتيمة ، بل تعرض لمثل هذا الامر في قصيدة أخرى ، جاءت بعد زمن من تأريخ النونية ، بعد أن وقر في نفسه ، أن الزمن المتطاول ، قد تكفل باساءة ابن عمه ، فأحالها رضى وارتياحاً ، وكان خطأ ما قدر ، فهو يقول : (١)

ولي ابن عم لا يزا ل إلي منكره دسيسا (٢)
دبت له فأحسن بعد البرء من سقم رسيسا
إما علانية وإما مخمراً أكلا نهيسا

وهو في هذا يصور الغضب الكامن في صدر ابن عمه مرضاً مستحكما ، ثم يعجب منه ومن قومه ، أولئك الذين أسروا عليه حقداً لا ينقضي ، فيقول :

إني رأيت بني أبيك يحمجون إلي شوسا
حنقا علي ولن ترى لي فيهم أثراً بئيسا

على انه لم يخل قصيدته هذه من رشقة بعيدة القرار في خطاب غريمه :

لو كنت ماء لم تكن عذب المذاق ولامسوسا

---

(١) الاغاني ٣/١٠١ .

(٢) انظر : شروح مفردات هذه الابيات في موضعها من هذا الديوان :

ملحاً بعيد القعر قد فلت حجارته الفؤوسا

وما أمهرها من إصابة ، وقعت في مقتل ،لا ينز دماً، كعهدنا بالشاعر حاقناً للدماء ، وانما ينز كرامة ، امتهنها الشاعر ،فصور ابن عمه غليظ المعشر ، كزاً ، عصي السلوك ، كل ذلك في سمات صلفه وصرامته وزعارته .

٣ - هذا الشعر : جرى الجاهليون في فواتح قصائدهم ، أن يقفوا على أطلال الديار الدارسة للتحية والبكاء ، وشايعهم في ذلك من استحب هذه العادة ، واستحسنها ، حتى وجدنا أبا الطيب المتنبي ، يغرى بها ، ولكنه يصورها تصويراً لا يخلو من سماجة وطرافة في آن واحد ، فهو يقول :

بليت بلى الاطلال إن لم اقف بها وقوف شحيح ضاع في الترب خاتمه

ثم كانت قافلة الخارجين عليها ، ومن رجالها عمرو بن كلثوم التغلبي في مطلع قصيدته المعلقة ،التي استهلها بوصف الخمرة ، وكانت في الشعر الجاهلي قصائد كثيرة،لم يفتتحها الشعراء بالنغمات التقليدية ، أو الالحان المميزة ، كما يسميها الدكتور يوسف خليف ، التي تعودوا عزفها، وألفنا سماعها ، بل يشرعون في موضوعاتهم ، وأغراضهم الاساسية ، دون تمهيد بين يديها ، مما لفت أنظار القدماء اليها ، وجعلهم يطلقون على هذه الطريقة بصفة عامة ، وعلى هذه القصائد بصفة خاصة أسماء مختلفة كي يميزوها ، يقول ابن رشيق : « من الشعراء من لايجعل لكلامه بسطاً من النسيب ، بل يهجم على ما يريده مكافحة ، ويتناوله مصافحة ، وذلك عندهم هو الوثب ، والبتر ، والقطع ، والكسع ، والاقتضاب ، كل ذلك يقال ، والقصيدة إذا كانت على تلك الحال ، بتراء ، كالخطبة البتراء والقطعاء » (١) وهي – بحق – مشكلة ، تفصح بوجودها ، وتحتاج الى أن نبحث عن تفسير لها، كما يرى الدكتور حسين عطوان، وهو يتقدم بين يديها بسؤالين :

(١) العمدة ١/٢٣١ وانظر : مقدمة القصيدة العربية في الشعر الجاهلي/١٠٨ .

الاول : هل يصح أن نزعم أنها من الأثار القديمة التي سقطت الى الشعراء ، وانسربت إلى قصائدهم من حيث لا يشعرون ؟ .

الثاني : أنزعم أنها ثورة على التقاليد الموروثة ، التي كبلت الشعراء بقيود ثقيلة ؟ ،

إن الاجابة عن السؤالين السابقين واحدة ، ونحسب أنها ان تتقدم بنا خطوة نحو التفسير السليم ، اذ نرى هذه القصائد عند المتقدمين، عند المهلهل ، وامرئ القيس ، ونراها عند زهير ، والنابغة الذبياني ، ثم كيف يستقيم هذا التفسير ، مع ما عرف عن زهير ، من أنه أستاذ مدرسة الصنعة في الجاهلية (١) ؟ .. ، ويخرج الدكتور عطوان إلى القول بضياع مقدمات هذه القصائد ، كما يرجع ذلك أيضا ، إلى أن بعضها مقول في ظروف سريعة ، تضطر الشاعر إلى « اعلان قرارات » خاطفة مناسبة ، لا تفسح له المجال لغير مباشرة الموضوع(٢) ،ونحن نميل إلى هذا القول إزاء بعض قصائد ذي الأصبع ، ولاشأن لنا بالرأي الاول، الذي لا يمكن أن ينسحب إلا على القليل النزر من القصائد الجاهلية ، فالذي بين أيدينا من شعر ذي الاصبع خاصة ، يمكن أن ينقسم قسمين :

الاول : قطع نظمت مباشرة ، لاغراض معينة ، لا مقدمات لها ، كقصيدة اللوم والتثريب ، التي واجه بها الشاعر أحد أبناء عمومته ، وهي السينية المرقمة (٦) ، ومثلها قصيدة الوصية المرقمة (١٥) .

الثاني : قطع تبدو وكأنها نثار من بناء شعري كامل ، كالقطعة (٤) و(١٠) و(١٣) و (١٤) و (١٨) .

ولكن ما نقول في الضادية التي مطلعها :

هدير الحي من عدوا ن كان واحية الارض

(١) مقدمة القصيدة العربية/١٠٨

(٢) نفس المصدر/١٠٩